# فستان العيد

جو الحجرة مزدحم بالذكريات.. يكتظ بالمعاني كأعماق فنان.. الأم الشابة قابعة في أحد الأركان.. منظرها يثير المشاعر ويهيج الوجدان.. الشجن معشش في محياها يزيده جمالًا وفتنة.. عيناها دامعتان.. شاخصتان إلى القعيدة.. النائمة على فخذها.. ذبالة المصباح تتراقص في عصبية كأنها تحتج على وقودها الذي أشرف على النفاد.. السكون مخيم.. والأم ساهرة وحدها مع الليل.. فقد بكّر الناس إلى نومهم ليصحوا مع أول خيوط النهار.. فغدًا يوم العيد.. والليلة ليلة العيد.. أيضًا.. الأم وحيدة مع كروبها وذكريات ماضيها وحالها.. وترى بعيني خيالها الفرحة بادية في وجوه الأطفال.. منذ فترة يحلمون.. والليلة يواصلون أحلامهم التي تتحقق بعد ساعات.. قلوبهم الصغيرة ترقص من فرط النشوة.. ثغاء العنزة يمزق حجاب السكون.. ويقطع نياط قلبها.. فالوقت موعد إياب زوجها والد الكسيحة النائمة.. ولن يعود الليلة.. ولن يعود أبدًا.. تطلعت ناحية الباب المواربة.. علتها ابتسامة باهتة من خلال دموعها.. ما زالت العَبرات تنزلق على خديها.. مسحتها خشية أن تسقط على وجه الصغيرة فتلسعها وتؤرقها.. وتوقف أحلامها.. لعلها تعيش حلمًا سعيدًا كأقرانها.. أوَليس العيد للناس وللأطفال أجمعين؟ الأب ها هو يتساءل في لهفة عن ابنته كعادته كل غدو ورواح.. ينظر من زاويتي عينيه إلى نصفها الأشل.. ولا يفلح في أن يخفي تعبيرات الألم والحسرة.

منذ أسابيع والصغار يعدون مبعث فخارهم من الجديد الجميل.. في الصباح ستختال العذارى ويخطرن.. يتسابقن فتهفهف فساتينهن.. كفراشات الجنة تروح وتغدو.. وتعدو بين الخمائل والأزاهير.. تتطاير ضفائرهن.. تتأرجح.. تتراقص معبرة عن أقصى درجات السعادة.

صوت آخر يمزق السكون.. إنه الفأر أنيسها.. يقرض ولا تلتفت إليه.. خليط من الصور تتدفق في مخيلتها.. ها هو الأب يجلس تحت قدمي ابنته.. يبذل جهدًا ليكبت آلامه النفسية.. وها هي الصغيرة.. تنقل بصرها في دعة بين والديها.. الحزن يزيدها جمالًا كأمها.. على وجهها تتآلف الدهشة مع الأحزان.. ما زالت أذنها تطن بوصية الوداع.. وما زالت تشخص إلى وديعة راحلها.. في هذه المرة، انفلتت دموعها لتسقط على وجنة الصغيرة.. صحت من شرودها على حركتها الواهنة.. لملمت شعرها الفاحم حول وجهها الملائكي.. لو انطفأ المصباح لأضاء وجه ابنتها القمر! إنه يضيء قلبها، فكيف لا ينير الدنيا بأسرها.. إنها الذكرى اليتيمة للزوج الفقيد.. غدًا تتناثر بسمات الصغار كالزهور.. والفراشات تتطاير ذيول فساتينهن.. كلٌّ يبدو سعيدًا بهيجًا.. حتى العصافير ستشدو فرحة بقدوم العيد.. ولا دليل على العيد في بيتهما.. وفي قلبيهما.. بل قلب الصغيرة الغضّ.

- ليتني بعت قرطي.. وابتعت لها فستانًا!

في صفحة الوجه البريء قرأت طفولتها.. تذكرت العيد أيامها.. كانت كل السعادة تتزاحم في قلبها..

وكانت تتمنى أن يمتد العيد يومًا آخر.. علمت بعدئذ أن للعيد أيامًا.. وأن عيد الفقراء يوم.. واحد.. يتيم!

في الغد.. والغد قريب.. سترفل الصغيرات في أثوابهن الزاهيـة.. وأحـذيتهن اللامعـة.. سـتعقص أمهـاتهن شعورهن بأشرطة جذابة الألوان.. ما زالـت تتأمـل محيَّـا ابنتها.. كم أحبها الراحل الحبيب!

قبيل وداعه وجَّه إليها نظرة فهمت مغزاها.. وكانـت محقة في نظرة اللوم التي أرسلتها إليه.. فكم دفعت أيـادي الخطاب، واستنكرت تهافتهم.. عيونهم النهمـة رسـخت عزمها على الرفض.. وما زال تأففهم من ابنتها محفـورًا في ذاكرتهـا.. أشـارت أمهـا بـأن تنتقـي أحـدهم.. دقـت صدرها، ولطمت خديها.. وأيـضًا، كبتـت ثورتهـا حـين عرضت الأم بإعفائها من رعاية ابنتهـا للغـرض نفـسه.. دفنت وجهها في صدر أمها وبكت.. وعلى الصدر نفسه، خرجت الثورة كلمات لوم وعتاب..

- كيف أبدل بالغزال حميرًا وحشية جائعة؟! إن ظفر الكسيحة هذه بألف من رقاب الرجال..

أودعتها الأم نظرة ذات معنى.. وما لبثت أن أوسعت ابنتها عناقًا ولثمًا.. ورددت بعينها:

- ليرتاح فؤادك يـا أمـي.. فيكفينـي عنـاق المـاضي زادًا.. وحضن ابنتي يـثلج أشـواقي.. ودسـتوري: ظـل ابنتي ولا ظل رجل..

لـن تنـسى تلـك الواقعـة.. حـين وقـف أحـدهم في خيلاء.. واثقًا أن يثـير لعابَهـا وجاهتُـه وأسباب ثرائـه..

سدت أذنيها دون كلماته المعسولة.. المسمومة.. طردته حتى لا تسول له نفسه أن يعكر صفوها ويدوس محرابها.. هاجمها طيفه مرة.. اقتحم عليها الحمام وكانت عارية.. أصابتها رجفة.. لبست على الفور.. في الطريق، حاول أن يخطب ودها.. جعلته فرجة الناس وأضحوكة الكبار والصغار.. رأته للمرة الأخيرة في منامها.. وكانت معه في بيته الكبير، ومن حولهما أولادهما.. وابنتها من بعيد ترنو إليها في ذلة وضراعة.. كادت تختنق فأيقظتها أنفاسها اللاهثة.. وأمطرت ابنتها تقبيلًا ودموعًا.. وحضنتها ساعات.. وبعد.. أصبحت في الخارج ذئبة وفي بيتها نبع حنان.. طائر يحتضن بيضته الوحيدة ليدفئها في رضا وقناعة.. وحذر.. امتحن الله وفاءها في مرض ابنتها.. طاش صوابها.. أصرت على النجاح، فكافأها الله بشفائها.. تحدت شياطين نفسها وأهلها.. وشياطين الرجال جميعًا من أجل ابنتها النصف إنسان.. تجسدت كل آمالها في ابتسامة على شفتيها.. وأبدًا ما شعرت بالتعاسة معها.. كانت الحجرة لديها عالمًا واسع الآفاق يزخر بكل أسباب السعادة والفرحة.

الليلة ليلة العيد.. كبرت الصغيرة وغدت تفهم معنى العيد.. استعادت الأم لوحات العيد المتألقة الموفورة الجمال في عيون الأطفال.. شعرت بأنها قطعت شوطًا طويلًا في اجترار الذكريات.. احتوتها الرهبة.. ارتعشت أوصالها، وتشنجت أطرافها.. بالأصابع نفسها، أزاحت رأس ابنتها في حنان.. أراحتها على كومة ملابس مهلهلة.. ذبالة المصباح ترتعش مستجيرة.. ترى نظرات ابنتها المستكينة.. قامت كالمخبولة تلف في جوانب الحجرة..

- لو لم يمت.. لو أبقى الله حياته حتى هذه الليلة!

قلبها يقطر همًّا وكمدًا .. الغد لديها حياة أو موت.. ما زالت تلف وتدور.. تفتش في الأشياء.. تعبث بكل ما يصادفها.. لا تدري ماذا تصنع.. المشاعر تتضارب في قلبها، وتجمَّد ذهنها عن التفكير.. اصطدمت عيناها بصندوق الملابس.. جرت إليه.. جثت على ركبتيها.. فتحته.. كل الملابس رثة.. بعثرت محتويات الصندوق.. الفتيات الصغيرات يرفلن في أثوابهن كفراشات بيضاء.. ابنتها ستركَنُ كسيرة النفس كالخنفساء.. وقعت عيناها على قطعة قماش.. بل أطلت القطعة في عينيها.. استشعرت النشوة.. إنها هدية زوجها.. كانت قد أرجأت تفصيلها لحين شفائه..

- كم سيليق بها!..كم سيكون الفستان جميلًا أخاذًا!!

لم تضِع لحظة.. قامت تفصِّل القماش.. إنها تعرف مقاسات ابنتها.. كيف لا وهي تحفظ دقائق مشاعرها وما يدور بخلدها! على وجهها تراءى الأمل.. والشوق.. والرهبة!!.. حتمًا ستسعد ابنتها.

انبرت تعمل في سرعة، وكأنها في سباق مع الزمن.. الفأر يواصل قرضه.. غاز المصباح في سباق معها.. والذبالة تخفت تدريجيًّا.. نظرت إلى المصباح تسترحمه أن يبقى قليلًا.. تعمل بروحها وبقدر حبها لابنتها.. وبقدر

وفائها للراحل الحبيب.. النوم لا يجترئ أن يداعب جفونها.. تحركت الصغيرة.. ابتسامة عريضة غريبة أضاءت وجهها.. الأم توّاقة ملهوفة لرؤية فستان ابنتها.. أذّن الفجر.. بدأ اليوم باكتمال الفستان.. تسلل خيط النهار بانتهاء الغاز.. وانطفأ المصباح!

رفعت الفستان.. فردته أمام عينيها.. غمرت قلبها فرحة لا تُقدَّر.. قصت شريطًا من لون الفستان نفسه.. ستعقص به شعر ابنتها مثل كل الصغيرات.. ابنتها بينهن.. تضحك مثلهن.. ذيل فستانها يتراقص.. صغيرتها تتراقص.. على شفتيها ابتسامات تتراقص.. قلب الأم يرقص ويرقص.. ويغني.. ترقرقت عيناها بدموع الفرحة.. نظرت في جو الحجرة.. لقد تبدلت كآبتها.. سينتقل العيد إلى دارها.. تضحك من الأعماق.. الأم قديسةٌ تلتف حولها الصغيرات.. ما زالت ترى العيد في حجرتها.. ما زال قلبها يغني.. زوجها يبتسم.. تتسع ابتسامته.. لم تمسح من عينيها دموع الفرحة.. الصغيرات كأنهن الملائكة.. هرولت إلى ابنتها لتوقظها مثل كل الأمهات.. أمسكت يدها.. على ثغر الصغيرة ابتسامة رضاء.. ارتمت يدها بجانبها.. ولم تكن تدري أن ابتسامة ابنتها العريضة الغريبة.. كانت ابتسامة الوداع!

* * *